

إلا ابن هزيمة وسلمًا الخاسر، وكلاهما شاعرٌ مجيدٌ أيضاً إلا أن أبياتهما لم تصل إلى ، فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .  
وقد كتبت هذه الرسالة في مُنتصفِ ذى الحِجَّةِ من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المستولُ في توفيقنا إلى السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

## الرياسة الرابعة

### جلوس المهديّ على دست الخلافة

أفتحُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهديّ على دَسْتِ الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن وُدِّ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهديّ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، فجرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرّاً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر - غفر الله له - كتم الربيع موته إلى الصباح عنم كان معه في الحج ، واستدعى عيسى بن عليّ عمه وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهديّ وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره - فيما كان يزعم - أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاته ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر ، ظناً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته

ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرضٌ من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمراً مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوقاً الجيبَ باكياً ينعى وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهديّ إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها ،<sup>(١)</sup> فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقٌّ لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في بئر ميمون مع السحر ، لست خلون من ذى الحجة ، وهو مُحْرَمٌ بظاهر مكة ،<sup>(٢)</sup> ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من الخلفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القميص والعمام والبرانس<sup>(٣)</sup> وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون ،<sup>(٤)</sup> ليعموا على الناس ، ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة<sup>(٥)</sup> الخادم إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفاً من أمر يحدث في الإسلام ، فجاءها في أحد عشر يوماً<sup>(٦)</sup> من مكة . وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعتُ الجلبة في مقاصير الحرم ، فاستعلمت الخبر ، فنبئتُ أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت ، فأخبرني نافذُ أحد الحجاب أن المهديّ قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيتُ أستاذي أبا يوسف ، فأبنتُ له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إليّ بالبقاء

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) ابن الأثير ٦ : ٨ (٣) الزرقاني ٢ : ١٤٨

(٤) الخنيس والمقد الفريد ٣ : ٥٣ (٥) المسعودي ٢ : ١٩٤

(٦) أبو الفداء ٢ : ٩

معه إلى قبيلِ الظهر ، وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحاتِ غاصّةً بجمهير الناس ، فوَجَّنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى اتهمنا إلى باب القبة الخضراء ، فجاوزنا الحُجَّابَ إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جَمَعَ الأمراء من بني العباس وجِلَّةَ القوَّاد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبخت وغيرهم . وكان المهديّ مستويّاً على عرش مَكَلَّلٍ باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قبةٌ تتدلى منها أستار من الديباج ،<sup>(١)</sup> وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفاً بِمِظَلَّتَيْنِ من الريش الأسود مرفوعتين على رحمين مكسوَّين بمروق من الذهب ، قد نُزِلَ فيها الياقوت والزَّبْرَجْدُ والفيروزُ ، ودونهما بنو هاشم على وسائدٍ قد تُنبتُ لهم ،<sup>(٢)</sup> ولباسهم خزٌ أسودٌ ، وكذلك كان لباسُ المهديّ ، وكانت عليه الطَّرْحَةُ ، وعلى كتفه بُرْدَةٌ النبي صلى الله عليه وسلم التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبرٌ مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه<sup>(٣)</sup> أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيراً<sup>(٤)</sup> له في سياسة الملك . وكان سلامان الأبرشُ حاجبُهُ واقفاً على بعض مِرْقَاةٍ<sup>(٥)</sup> هذا

(١) المسعودي ١ : ٢٣٤ (٢) الأغاني ٤ : ٩٣ (٣) الفخرى ٢١٥

(٤) الأغاني ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودي ٢ : ١٩٦ (٥) السيوطي

المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة،<sup>(١)</sup> قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء وأكابر المسلمين.

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدهوا الخليفة بتعزيتة في آية، ثم يهنئوه بجلوسه على تخت الخلافة، فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائسهم ونبذوها وراء ظهورهم، لأن الخلفاء لا يزون بالعمائم،<sup>(٢)</sup> ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين، ولفظ البيعة قوله<sup>(٣)</sup> «إنا نبايع سيدنا ومولانا الأمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور، على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه»، ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يُسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بني العباس.

ثم تناول الوزير منشوراً كتبه الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضاً للناس إلى مبايعة المهدي،<sup>(٤)</sup> فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين. أما بعد فإني كتبت هذا وأنا حي في آخريوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي، ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بحمد ولي عهدكم وأذكركم البيعة له،

(١) يفهم من ابن الاثير ٦: ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي

المنصور (٢) الأغاني ٩: ٩٧ (٣) السيوطي (٤) ابن الاثير ٦: ١٢

وأستنهضكم للوفاء بهمهده واجتماع كلمتكم عليه ، فأنما قوتكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والاحسان إلى المسلمين والسلام . « فترقق الدمعُ في عيني المهدي<sup>(١)</sup> ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء ، لما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمرء وهم يدعون له بالسلامة .

### سياسة المهديّ وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينةٌ حافلةٌ فصرفتُ العنايةَ إلى تزيين مشرع الزوايا<sup>(٢)</sup> بالأنوار ، لقربه من موضعي ، ليكون في ذلك قضاءً الواجب من شكر الخليفة على ما أولاني من الجليل ، ودفعٌ لألسنة الوُشاة عن السعاية بي إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلات الزوراء في تلك الأيام بأرباب الملاحى ، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والأعياد<sup>(٣)</sup> ولا أطيلُ لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم ، لأنها في جميع الأمم عامةٌ ومماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهديّ - أصلحه الله - من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتهم له وميلهم إليه فأقول .

إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظم موضعه من السلطان ، صنع لبني هاشم وسائر قريش طعاماً جاوز فيه الحد بسعة

(١) الاسحاقى ٨٨ (٢) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

(٣) ابن خلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للفرالى

النفقة،<sup>(١)</sup> حتى إنه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه ،<sup>(٢)</sup> فكان تخاف أرباب الدولة نفاذ ما في بيت المال<sup>(٣)</sup> إذا استمر على هذا العطاء ،<sup>(٤)</sup> ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤمن والكسور ، وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه ، فإن الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقصر ، لا يفرقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والسيارة صاروا يؤدون الدينار الطبرى ، الذى هو أربعة دوانيق ، وممسكون الوافى ، الذى هو مئقال ، فلما أمر بزيادة صار يطلب الوافى ، ثم أمر الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر الى أبى جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور ، فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن أئزم الناس ظلماً فى ذلك ، فقيل له إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة اثنا عشر ألف ألف درهم ،<sup>(٥)</sup> فقال على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً ، لأن العدل مؤفر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدى هذه المأثرة التى أحسبها له من أجل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فإن لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل

(١) الأغانى ٣ : ٩٤ (٢) المسعودى ٢ : ٤٠١ (٣) المسعودى ٢ : ١٩٦

(٤) المصرى والخميس ٢ : ٣٣٠ (٥) الماوردى ١٣٧

العباد والبلاد جميعاً، فأثماً كان غرضُ الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقامَ في بلدان الحِصْب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا في ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا للحرب أولغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفّلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالبُ الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها إلا تحصيل القوت الذي يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب المهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مردّ العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتبئنته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشرف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسناً إليهم ، <sup>(١)</sup> محباً لهم وساعياً فيما تصلح به أمورهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلساً لردّ المظالم ، <sup>(٢)</sup> ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدّي الولاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال ، <sup>(٣)</sup> ولقد وجدت له في استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما

(١) الخميس ٢ : ٣٣١ (٢) السيوطي وابن الاثير (٣) في الماوري ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في كتابة الدواوين اذا وقع بها تزوير وفي تظلم المسترزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة اضعفهم عن

نفسه ، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم ، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بئامن من تغلبهم عليه ، ثم جعلُ الخلافة من بعده في ولده ممنوعةً على غيرهم من بني العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتدّ عليه وقمّه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يلمون به شعّهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابن عمّه عن ولاية العهد فإنه كان يُتعبُ منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بن خالد - أعزه الله - فأصابه في قلب شديد ، يقعدُ مرةً ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمراً عظيماً ، فقال اجلس قريباً مني ، لأنني أريدك للمشورة <sup>(١)</sup> إن النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، فالبشوا أن أجمعوا على أنى بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بمحض من الصحابة ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهدا عمرُ إلى ستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأى الأمة على عليّ وعثمان ، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان ، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه ، فبايعوا من أراده ، فاستقر عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لأقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من

---

انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضائه في البنات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

الأمويين بالصلات الطائفة ، وعهدُ المسلمين قريب بضبط<sup>(١)</sup> أبي بكر وعمر ، فقتلوه وكانت تلك أولَ فتنَةٍ في الإسلام ،<sup>(٢)</sup> ثم أجمع العرب على عليّ عليه السلام ، وكان الفُرس يميلون معه ، فاستوثق له الأمر في العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان ، إلاّ الشامَ لاستواء معاوية فيها ، فلما قتله الخوارج لم يرَ الحسن ابنه مقاومةَ الأمويين بالقتال ضناً ببذل الدماء فنزل له عن الأمر ، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخافُ اليومَ إنْ صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع ، ثم يكون من الفتن ما لا يؤمن غائلته على المسلمين ، فأشرِ عليّ يا أبا الفضل في هذا الأمر ، الذي لا يتعاطمه أمر ، فانك بحمد الله مباركُ الرأي لطيفُ النظر . فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إني أرى الزلّة في هذا الأمر لا تُستدرَك ، والخطأ فيه غير مأمون ، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكدَ في البيعة . فقال له المهديّ كنت أفعل هذا لولا أني أخاف من عيسى نكثَ اليهود ، ولكني أرى أن أخلمه عن الولاية وآخذ البيعة لموسى على المسلمين ، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يُعلمَ شيعته ومسانّة أهلَه بذلك ، ولم يتعمق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به ، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة ، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق ، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذي تزهق النفس دون التمكن من أهلِه ، وإنما يلتمس لهم من المغرب أمماً ترسخ فيهم دولتهم ، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

ولما جمع المهديّ أكبر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم<sup>(١)</sup> ولكن على أن يُجيبه ابنُ عمه إلى الاتحاد وأنهى بعض مَنْ يَسْتَخْدِمُ الفقه في رضا الملوك إلى أن يقول إنَّ أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلَّا لتبقي الخِلافة في بيته بعد المهديّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحقُّ بها من أعمامهم ، فكتب المهديّ إلى الرَّحْبَةِ يسْتَقْدِمُ ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنه يعتلُّ بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلَّا أن يُكرهه بالقتال . فعمدَ إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً بالأخذ بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له أبو هُرَيْرَةَ محمد ابن فروغ ، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصفّ العساكر صفوفاً متعارضة ، ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليُوهِمَ باستكثار العُدَّة والغزم على مثابة الحصار ، ثم يُنزلُ بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وأفزعه الهول ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سَحراً ورأى سواد الجيش ، فامتلاً قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلَّا بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهديّ ، فلم يفتُرْ عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولمَّا تصرّف المهديّ في أمر البيعة بما أراد ، ثار في قلوب المخالفين<sup>(٢)</sup> له ما كان يُخِمُّدُهُ فيهم حلمه وسَعَمَةُ عطائه ، فحصل في نفسه منهم خوف

(١) ابن الاثير ٦ : ١٦ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطي

شديد ، ولكنه لم يرمقوا متهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لثلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يجب ، وإنما رجع إلى من يلوذه من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم ، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكره العزاب على الزواج ، والاحسان إلى المتعفين من الشبان ، مما جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منه إلى غيرة به على النساء ،<sup>(١)</sup> وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازتها بمكة مهد الاسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

### ظهور المهدي بمناصرة العلم

إني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأني إلى قوم سواهم لأميل) لأؤتي المهدي حقه من الثناء على ماله من جميل العناية<sup>(٢)</sup> في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياماً<sup>(٣)</sup> معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يحجزهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيت أنه أصلحه الله أعطى الخلفاء نوالاً للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة<sup>(٤)</sup> فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من

(١) في الاغانى ٣ : ٤١ ان المهدي من أشد الناس غيرة (٢) الاسحاق ٨٨

(٣) المستطرف ١ : ٣٧ (٤) الاغانى ٩ : ٤٤

محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول  
مهاوولي الخلافة ، وقد قصده ابن الموثي من البادية ،<sup>(١)</sup> وسلم الخاسر من  
البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السلمى<sup>(٢)</sup> من الحجاز ، فقالوا فيه  
الشعر الذي لم يُمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظ لأبي العتاهية  
في تهنته إياه بالخلافة قوله .

أته الخلافة منقادةً إليه تجرُّ أذيالها  
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها  
ولو رامها أحد غيره لزُلت الأرض زلزالها  
وإن الخليفة من بُغض «لا» إليه ليُبغض من قالمها

فأصاب لذلك حظاً وافرًا من المال . وكان بشار المقدم ذكره في الرسالة  
السالفة واقفًا في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم  
انظروا هل طار الخليفة عن سريه ؟

وكان المهدي يقدم عليهم سلمًا البصري ومروان بن أبي حفصة  
ويُعطيها عطية واحدة ، فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبهًا  
بأكابر الشعراء ،<sup>(٣)</sup> وأما سلم فانه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون  
أنسًا في عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون  
يشبه أن يكون ناشئًا عما فيها من تباين المشرب بين الافراط عند  
الأول والتفريط عند الآخر ، فإن مروان بخيل يضمن بماله ،<sup>(٤)</sup> وسلم  
سمح يبذل المال ، يأتي إلى دار المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف

(١) الاغاني ٣ : ٨٨ (٢) ابن خلكان ١ : ١٠١ (٣) الاغاني ٩ : ٤١

(٤) الاغاني ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

درهم ، ولباسه الخزُّ والوشى ،<sup>(١)</sup> ويأتى مروان بأثواب رَمَّةٍ على حمار  
يكثره بدرهم لا يخرج من يده إلا بعَصْبِ الرقيق ، مع كثرة ما أصابه  
من المال<sup>(٢)</sup> في صلوات تجاوزت خمسة آلاف دينار في عطية واحدة  
كما علمتُ .

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجلَّ منها في شعر سلمٍ إنِّي لأعيبُ  
عليه المداهنة التي يلتمس بها مرضاةَ الخليفة بقده في أهل البيت على غير  
حكمةٍ وعقل ، كأنه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله في ثبوت  
الخلافة للعباسيين وبعْد العلويين عن وراثة النبي صلى الله عليه وسلم .

يا ابن الذي ورث النبيَّ محمداً دون الأقارب من ذوى الأرحام  
أنى يكون وليس ذاك بكأن لبني البنات وراثةُ الأعمام<sup>(٣)</sup>  
وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هي مصلحة دينية  
لا وراثةٌ دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبي  
صلى الله عليه وسلم صرَّح بأن الحسن والحسين هما ذُرِّيَّته فاذا وجدت  
الذرية لم يبق مدخلٌ للأعمام في الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة  
الجاهلية التي نُسخَت بمجيء الإسلام ، ولو أنا ضربنا عن ذلك كله  
صفحاً ما وجدنا أصلحَ للإسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف  
عن طاعته أحدٌ من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذِكْرها الآن في  
شئ ، وإنما أعود إلى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهديِّ ، فأنى  
شهدتُ بداره أيامَ الشعراءِ وأيامَ القُصَّاصِ وأيامَ النُدماءِ وأيامَ المغنِّينِ وأيام

(١) الاغانى ٩ : ٣٩ (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١  
(٣) الاغانى ١٢ : ١٠ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودى

الرماة<sup>(١)</sup> وأيام جَرَى الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السَّبَّاق فاني لأعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحَلْبَةَ وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سَبَّاقُ الأضاميم ، يقال له الغضبان ،<sup>(٢)</sup> فكان أولَ خيلِ الحَلْبَةِ في ذلك اليوم ، فلما وَصَفَه الشعراءُ أصاب جاثرتهم العُمانيّ وقد ارتجز .

قد غضِبَ الغضبانُ إذ جَدَّ الغضبُ وجاء يحمي حَسَبًا فوق الحسبِ  
من إرثِ عباسِ بنِ عبدِ المُطَلِّبِ وجاءت الخيلُ به تشكو التعبِ

له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذي ترتاح إليه النفس ، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء ، فهو يوم الغناء وكان المهديّ إذا أخذ له مجلساً بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يروّنه<sup>(٣)</sup> الأفلح بن أُنَى العوّراء ، وهو أوضحُ الناس غناءً وأعرفهم بالألحان والأصوات ،<sup>(٤)</sup> وإن هو لم يكن أحسنهم صوتاً ، فإنما يحسّن الغناء عند من يُشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدل الأوزان ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الأعراب ، ويستوفي النغم الطّوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصّار ، ويصيب أجناس الإيقاع ،<sup>(٥)</sup> فهو يحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة ، وليس له فيها شريك إلا مغنّ آخر يقال له عطرده<sup>(٦)</sup> قد أدرك دولة الأمويين في آخر مدتهم ،

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧ (٢) الأغاني ١٧ : ٨٢ (٣) الأغاني ٤ : ٩٩ وذكر المسعودي ١ : ١١٨ أن الأوائل من بني العباس ما كانوا يظهرون للنساء (٤) الأغاني ٤ : ٨٨ (٥) الأغاني ١ : ١٢٦ (٦) الأغاني ٤ : ٩٩

وأما مَنْ سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للمتقدمين من الفرص ،  
وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأنّ الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة كان  
مضرجاً بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهب  
والترف إلى التماس الأسباب التي يؤيّدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة .  
ثم إنّ تفل الغناء إلى العربية <sup>(١)</sup> ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من  
صناعته وفنونه ، لأنهم تقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبى سفيان ،  
وهو الزمن الذي أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من  
سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ، فلقد نقلت إلينا الأخبار السالفة أن  
الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة الملك ، ولا كان لهم على  
المسلمين سلطان دينوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا ، <sup>(٢)</sup> وإنما  
كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبسون الثياب  
المرقعة ، <sup>(٣)</sup> ويتخذون في أرجلهم نعالا من ليف ، <sup>(٤)</sup> ويمشون في الأسواق  
كبعض الرعية رجالا <sup>(٥)</sup> وكان لباس أبى بكر الشَّملة والعباءة ، ولباسُ عمر  
جبة الصوف مرقعة بالأديم ، ومرّ كبه الأبل ، <sup>(٦)</sup> وكان على عليه السلام  
يتجافى عن جمع المال ، ويقول ياصفراء ويابيضاء غرّى غيرى ، <sup>(٧)</sup> وكان مطعمهم  
على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق في  
الأطعمة ، حتى إنّ المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الخنطة

(١) الأغانى ٣ : ٨٦ والمسعودى ٢ : ٣٥٧ (٢) وكانوا يقولون في خطبهم

للسلمين أطعمونا ما أطعنا الله فيكم فاذا عصيانه فلا طاعة لنا عليكم (٣) الطبقات

١٩ : ١ والمقدمة ١٨٥ (٤) الفخرى ٣٣ (٥) الفخرى ٨٩

(٦) المسعودى ١ : ٣٢٠ (٧) الطرطوشى ١٢٤

بِنَخَاتِهَا، وَلَا يَمْرَفُونَ مِنَ الْأَلْوَانِ إِلَّا اللَّحْمَ يَطْبُخُونَهُ بِالْمَلْحِ وَالْمَاءِ،<sup>(١)</sup> وَكَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ يُتَجَاوَى عَنْ أَكْلِ الطَّيْرِ وَالِدَّجَاجِ،<sup>(٢)</sup> وَكَذَلِكَ كَانَ الْعَرَبُ فِي سَدَاجَةِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى بُعْدٍ مِنْ تَرَفِّ الْمَتَمَصِّرِينَ فِي جَمِيعِ مَعَايِشِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْغِنَاءِ إِلَّا حُدَاءُ الرِّكْبَانِ أَوْ ضَرْبٌ مِنَ النَّصَبِ أَرْقُ مِنْهُ، فَلَمَّا سَادَ فِيهِمُ الْعِمْرَانُ فِي عَهْدِ الْأُمَوِيِّينَ، وَأَلْقِيَتْ عَلَيْهِمْ أَصْوَاتُ الْفَرَسِ نَبِغِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ فِي مَحَاسِنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، ثُمَّ فَتَقَتِ الْفَتَنُ فِي دَوْلَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَقَدْ طَلَبُوا الْخِلَافَةَ مِنْ دُونِ الْمَلِكِ، فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُمْ مَجْلِسٌ بِذَوْرِهِمْ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ.

### وَلَوْعُ الْمَهْدِيِّ بِمَزَاوِلَةِ الصَّيْدِ

تَجَدَّ فِيَّ أَنَا ذَاكَ لَكَ عَنِ الْمَهْدِيِّ أَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى خِلَافَةِ الْأُمَّةِ أُمَّةَ الْمَلِكِ، وَهِيَ أَمْرَانُ لَمْ يَجْتَمِعَا فِي خَلِيفَةٍ غَيْرِهِ، وَرَبَّمَا التَّمَسُّ الطَّيْبَاتِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالتَّنَاقُ فِي فُنُونِ الْمَعِيشَةِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَمْ يَلْبِغْهَا مَلُوكُ بَنِي أُمِيَّةٍ مِنْ قَبْلِهِ، فَإِذَا جَلَسَ إِلَى الثَّدْمَاءِ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَتَّعَ نَفْسَهُ بِلَذَّةِ أَحَادِيثِهِمْ<sup>(٣)</sup> وَإِشَارَتِهِمْ دُونَ سِتَارَةِ تَحْجُبِهِمْ عَنْ نَظَرِهِ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ رَكِبَ فِي الْمَوَاكِبِ الْعَظِيمَةِ الْمُزَيَّنَةِ، وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ.

وَأَنَا لَا أَعْدُ الصَّيْدَ مِنَ الْمَلَاهِي الَّتِي تَعَابَ عَلَى الْمَلُوكِ إِلَّا مَتَى أَفْرَطُوا فِيهِ وَكَانُوا أَقْرَبَ بِهِ إِلَى الْأَشْرِ مِنْهُمْ إِلَى النَّهْزَةِ وَالرِّيَاضَةِ، كَمَا نَعْلَمُ عَنْ صَبِيَّةِ الْأُمَوِيِّينَ الَّذِينَ أَجَلَّوْا أَهْلَ الزَّرَاعَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ لِتَحْطِيمِهِمْ زَرْعَهُمْ فِي طَلَبِ

(١) الابيشيى ١: ١١٤ (٢) المقدمة ١٧٨ وفي البخارى وشرحه للقسطلانى.

(٣) السيوطى

ما يخالف هذا

الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون في المهديّ ( أصلحه الله ) وإنما هو كونه  
به<sup>(١)</sup> من غير إفراط فيه . لأنني رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه في  
اتخاذ العُدّة له ، إلى أن يصنعوا نصال سهامهم من الذهب كما ورد عن  
بعضهم في كلام الشعراء .

ومن جوده يري العُدّة بأسهم من الذهب الإبريز صيغ نصاله  
ليُنْفَقَهَا المَجْرُوحُ عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتلها<sup>(٢)</sup>  
وهذه مباحاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القنص ، وإنما عي  
بأتحاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التي تسبق الظلم في عدوها ،  
يلبسها أطواقاً من ذهب ،<sup>(٣)</sup> ويوكّل بكل كلب عبداً يخدمه ، كما  
يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة<sup>(٤)</sup> في تربيتها للتحريض على الصيد ،  
إذ كان لا ينهي الشرع عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما  
البيزان والصقور فانه لم يسبق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب  
من ملوك كِنْدَةَ ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحباله فاتقض بازٍ وحمل  
عصفوراً وعلّق واياه في الحباله ، فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ،  
ورماه في كسر البيت فرآه قد دَجَنَ ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاماً  
أكله ، وإذا رأى طيراً طار إليه ، فاتخذ في عُدّة الصيد وطلب به الطير ،  
وصار العرب يُؤدّبونه<sup>(٥)</sup> لذلك ، ثم يؤدّبون العقبان أيضاً ، ويقولون إنها  
تعمل عملاً لا يدركه أكثر الصقور<sup>(٦)</sup>

(١) ذكر حب المهدي للصيد في الأغاني ٣ : ١٥٠ وابن الاثير والاتلیدی وابن

عون (٢) الاتلیدی (٣) ذكر الفخری ٦٧ هذه الأطواق من الذهب (٤) الأغاذ

٦ : ٧١ (٥) المسعودی ١ : ٩١ والأغاني ٧ : ٤٥ (٦) الديمیری ٢ : ١٥٢

وقد ركب المهدي يوماً إلى الصيد وكنت في خدمته مع الأمير عليّ  
ابن سليمان ابن عم أبيه وأبي دُلّامة الشاعر، وكان خروجه من القصر في  
آخر الليل، وفي طرف الأفق شفقٌ من الفجر، وكان يحوطه فرسانٌ من  
الحرس متنكبون قسيهم، متقلدون سيوفهم، يتبعهم قطعة من الجنود،  
وطائفة من العلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن<sup>(١)</sup> الخفيفة، وبينهم عدد من  
الوُصفاء في أخف كسوة وأجل لباس، وكان مسيره محاذياً للنهر ارتياداً  
للخضرة التي تجنح إليها الطيور وتسرح فيها المهوى والغزلان، حتى إذا انجلى  
النهار وقد رمى شيئاً من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا  
حلقة في أرض مطمئنة مُمرعة، ثم يُضيقوها رويداً رويداً إلى أن يؤخذ  
الصيد بين جموعهم من كل جهة،<sup>(٢)</sup> فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في  
حلقتهم غزال قد نفر ومراً، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخفّ له في ذلك  
اليوم، فمال هو وابن عمه إليه ورشقاها بالسهم فأصابه سهم في صدره،  
وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه، فلما جلسا للاستراحة حمل  
إليهما هذا الغزال، فوجد في صدره سهم الخليفة، فارتجل أبو دُلّامة وهو  
يريد المزاح<sup>(٣)</sup>.

قد رمى المهديّ ظيياً شكّ بالسهم فؤاده

وعليّ بن سلّيمان رمى كلباً فصاده

فهبثا لهما كلٌّ امرئٍ يأكل زاده

وقد اتفق للمهديّ في ذلك اليوم نادرة لم أرَ أُظرفَ منها فيما يتفق

(١) ابن الاثير ٦: ٣٠ (٢) الفخرى ٦٥ (٣) الاغانى ٦: ٤٧

والشريشي ٢: ٢٦١ والمقد الفريد ٣: ٤٤٥ .

للملوك من النوادر، وهي<sup>(١)</sup> أنه أخذته السماء وهو منتقطع عن عسكره متبذئ من أصحابه، فركض فرسه مِلءَ فُروجه حتى لا يلبده المطر، فاتته إلى بيت أعرابي مَلَّاح<sup>(٢)</sup> فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة، ثم قال يا أبا العرب هل من قرى؟ قال عندي فضلة في رَكوة فقال له هات اسقني، فشرب قعباً وسقاه، فلما شرب قال له يا أبا العرب أتدرى من أنا؟ قال لا والله قال أنا من خدام أمير المؤمنين الخاصة، قال له بارك الله في موضعك، ثم شرب قدحاً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا؟ قال زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين، قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين، قال رحبت بلادك وطاب مرادك، ثم شرب قدحاً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا؟ قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال فليست كذلك قال فن أنت؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابي الرَكوة وأوكأها، فقال له الخليفة مالك يا شيخ؟ فقال مكانك. والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع قنزعم أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه. ونزل الأشراف إليه. فطار قلب الأعرابي من الخوف، فقال له المهدي لا بأس عليك ولا خوف، ثم أمر له بمال وكسوة. ولم يلبث أن رجع إلى الحضرة بعد انكاشي ناله من العدو السريع وتزول المطر وهبوب الريح الباردة.

(١) المسعودي ٢ : ١٩ وابن الاثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف

٣٠٦ : ٢ والشريشي ٢ : ٢٥٧ والالتلدي ٨٦ (٢) الأغانى ٣ : ١٥٠

## في تمة أخبار المهدي ورسالتى الى خراسان

نعود إلى ذكر المهدي في دولته وسياسته ، فانه لما حقق البنية بما اراده من البيعة لأولاده بقي عليه أن ينظر في أمر العلوية ، وقد بقي منهم في السجون جماعة لم يُطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما ولي الخلافة ، <sup>(١)</sup> بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقه أهل البيت من الذين خلفوا جدم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمّد مضرّتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يُطلعونه على أمورهم فيما يُسرون ويُعلنون ، وفيهم رجل من بنى سلّيم يقال له يعقوب بن داود ، طوّقه أمر الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويُعلمه بمكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المال بفرضه غرضاً آخر ، فبقي مبله مع أهل البيت ، والمهدي وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك <sup>(٢)</sup>.

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج في كثير من عطاء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الاسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحميري خاله ، وحمل معه خمسين ألف درهم ومائة

(١) في ابن الاثير ٦ : ١٥٠ والأغانى ٣ : ٣٩ انه عند ما ولي الخلافة أطلق

المسجونين (٢) ابن الاثير ٦ : ١٤

وخمسين ألفَ ثوبٍ<sup>(١)</sup> يُفَرِّقُهَا فِي أَهْلِ الْحَرَمِينَ ، وَكَانَ عَازِماً فِي تِلْكَ الْحِجَّةِ أَنْ يَنْكَبَ الْإِمَامَ الْحَسَنَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَادِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي جَوَارِ مَكَّةَ ، فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ بِالشَّفَاعَةِ إِلَيْهِ وَالْحِيلَةَ الْمُبَارَكَةَ عَلَيْهِ حَتَّى نَالَ رِضَاهُ عَنْهُ فَأَطْلَقَ لَهُ الْأَمَانَ<sup>(٢)</sup> الَّذِي كَانَ مَقْبُوضاً عَنْهُ وَعَنْ آلِ بَيْتِهِ فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرٍ .

وَمَا قَدِمَ إِلَى مَكَّةَ نَزَعَ كُسُوتَهُ الْكَعْبَةَ وَطَلَى جِدْرَانَهَا بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ ثُمَّ كَسَاهَا كُسُوتَهُ جَدِيدَةً مِنَ الْحَرِيرِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ عَلَيْهَا أَنْ تَهْتَدِمَ لِكثْرَةِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الدِّيَابِجِ الَّذِي كَسَاهَا إِيَّاهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِنشَاءِ أَرْوَقَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَمَلَ لَهَا الْأَعْمَدَةَ الرَّخَامَ مِنَ الْبَحْرِ ،<sup>(٣)</sup> وَأَتَمَّ بِنَاؤَهَا عَلَى عِنَايَةِ يَلْتَمَسُ بِهَا اسْتِمَالَةَ أَهْلِ الْحَرَمِينَ مَعَ مَا أَوْلَاهُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ ، وَاتَّخَذَ لَهُمْ مَادِبَ أَفْرَغِ الْوَسْعِ فِي زَخْرَقِهَا وَتَنْمِيقِهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ مَلِكِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ سَقَاهُمُ الْمَاءَ الْمُبَرَّدَ بِالتَّلْجِ الْمَحْمُولَ مِنَ الشَّامِ ،<sup>(٤)</sup> (وَكَانَ الَّذِي حَمَلَهُ إِلَى مَكَّةَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلْمَانَ الْهَاشِمِيُّ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْبَصْرَةِ ذَكَرَهُ) وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُوسِعُ أَهْلَ الْبَادِيَةِ تَعْجِيباً مِنْ اقْتِدَارِ الْمَلُوكِ عَلَى الْغَرِيبِ ، ثُمَّ إِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِمُ الْوُظَائِفَ الَّتِي قُبِضَتْ عَنْهُمْ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ مَا حَمَلَهُ مِنَ الْحَضْرَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مَحْمُولَةٍ إِلَيْهِ مِنْ مِصْرَ ، وَمَاتِي أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الْبَيْتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، فَبَلَغَ الْمُنْفَقُ فِي هَذَا الْحِجِّ عَلَى كُسُوتِ الْكَعْبَةِ وَصِلَةِ النَّاسِ وَبِنَاءِ الْقُصُورِ بِطَرِيقِ مَكَّةَ وَاتِّخَاذِ الْمَصَانِعِ فِي كُلِّ مَنَهْلِ مِنْهَا وَتَحْدِيدِ الْأُمِّيَالِ وَالْبُرُكِ وَحَفْرِ الرِّكَايَا وَغَيْرِ ذَلِكَ نَحْواً مِنْ سِتَّةِ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَاصْطَفَى لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ

(١) الخيس ٢ : ٣٣٠ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ (٣) الخيس ٢ : ٣٠٠

خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل بحفائهم له محبتهم إياه، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رُخص وخصب بعد جهد أصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء<sup>(١)</sup> الجارف، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميه<sup>(٢)</sup>

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالاً لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر إلى تدبير الولايات ورتب أناساً يؤدون رسائله إلى العمال ويتقربون لهم في إنفاذها وسام الأمانة<sup>(٣)</sup>، ووجههم في جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتاباً إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض الأمانة بانفاذ ذلك. ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزيمة<sup>(٤)</sup> وأقام على الشرطة من تبين فيه حسن النظر والتدبير، فاستوثق له الملك من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس إليه. إلا أنه تواترت عليه في منتصف هذه السنة، والدهر له صافٍ، رسائل من أبي عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جندها واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوية وأغوى الخلق، وقامت له في الصفد وبُخارى أنصار قد عاثوا في البلاد، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد، فتخوف المهدي أمرهم وأخرج إليهم معاذ بن مسلم موعزا إليه بأن يلتئم مع الحرشي الذي هو أمير الجيش في خراسان، حتى إذا كان

(١) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠ (٢) الأغانى ٣ : ٩٤

(٣) ابن الأثير ١٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر أن المنصور كان يجب أن يوجد في

دولته مثل ذلك ٦ : ١٠ (٤) ابن الأثير ٦ : ٢١

على انتظار البشائر منه وصله من أبي عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين، فعزم على توجيه رسول يكشف باع الفتنة ويصلح بين الأمويين، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبي عبد الله فيمن يطوّقانه أمر هذه الرسالة، فرام يعقوب أن يقلدنيها، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل قحطبة وكان الربيع حاجب أبي جعفر راغباً في توجيهي بها أيضاً جبالاً، ولكنه وقمت نفرة<sup>(١)</sup> بينه وبين أبي عبد الله فاشتغل في معاكسته وبلوغ المكروه منه.

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يعثي إلى مرو لأنظر في أمر هذا المقنع الأعور، وجعل لي التصرف فيما أرى حله وعقده من خلاف القواد، إذ يكون خير الجيش المرجو ما لم تتقلب بامرائه الأغراض، ولا سيما أن له في خراسان عدوين يتفقان جميعاً عليه. جماعة خارجي يقال له يوسف البرم<sup>(٢)</sup> وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته و يقيمون دعوته على بذل الدماء. فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا في أمر من السياسة، ولذلك كانوا أقل على الدولة خطراً من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحوّل في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله. وقد نقلت الأخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراه في السماء قرأ آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال وغلبة الرجال.

وإنما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحوّل قبله في صورة أبي مسلم

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الاثير ٦: ١٩ (٢) ابن الاثير ٦: ١٦

ليسنمیل الناس إليه كما استمالهم داعيةُ الاماميةِ رحمه الله وان كان مبدأً عن اظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامه الدينَ لئيل مناهِ وجهاً من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام اليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدماً بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عيسى عليه السلام مقدماً بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقدماً بالبلاغة ففضل البلغاء ، فرأى أن عصره مقدّم بالكيمياء فأراد أن يبهّر الناس بما يستنبطه من المركبات ،

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرقة وأنا على أهبة السفر الى خراسان وسأصدر لك منها كتاباً أودعه ذكر الشعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم . وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل

## الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما<sup>(١)</sup> وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلامَ الفضل<sup>(٢)</sup> أعزّه الله وأطنيّ ما بنفسى من الشوق إلى الأئس بقربهم

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لادن الرشيد كما هو مذکور في ابن الأثير